الفصل العاشر
وفاة «عثمان»

كيدُ الحاقدينَ:

كانت الانتصاراتُ العظيمةُ التي تحققت في عهدِ عثمانَ ونصرُ اللَّهِ الإسلامَ والمسلمينَ سبباً في حقدِ الكثيرينَ على الخليفةِ، وراحَ هؤلاءِ الحاقدونَ يدعونَ ويخترعونَ أسباباً يبررونَ بها موقفهُم المخجلَ هذا، فمرةً يدَّعونَ أنَّ عثمانَ إنما يوليِّ أهلَهُ وأقاربَهُ المناصبَ الكبرَى متناسينَ أنَّ هؤلاءِ الولاةُ قد تحققَ على أيديهِم الكثيرَ من الانتصاراتِ، وسارتِ الجيوشُ الإسلاميةُ تحتَ إمرتهم وقيادتهم لقمعِ المتمردينَ وتحطيمِ جيوشِ «بيزنطةَ» و«فارسَ»، وأكملت فتوحاتها ورفعَتْ راياتِ الإسلامِ إلى الأبدِ في تلكَ المناطقِ البعيدةِ.

ولم يكنْ واحدٌ من هؤلاءِ الولاة مُداناً بذنبٍ فَعَلهُ، لكنَّ بعضَ المخالفين الثائرين أصروا على رأيهم بعزلِ الولاةِ واجتمعوا في المدينةِ، وحاصروا دارَ الخليفةِ، مهددينَ بقتْلهِ إن لم يفعل ما يريدونَ.

واختارَ عثمانُ بعضاً من كبارِ الصحابةِ هُم: عبدُاللَّه بن عمر، وعمارُ بنُ ياسر، وأسامةُ بن زيد؛ لمتابعةِ أعمالِ الولاةِ، وكانت آراؤُهم جميعاً تُفيدُ أنَّ الولاةَ يسيرونَ سيراً صحيحاً لا يخالفونَ أوامرَ اللَّهِ.

كانَ هؤلاءِ الثائرونَ ينظرونَ بعينِ الحسدِ إلى أبوابِ الرزقِ التي فتحهَا اللَّهُ على بعضِ الصحابةِ مع اتساعِ الدولةِ الإسلاميةِ، وراحوا وقد أعماهُم الحقدُ يدَّعونَ الأسبابَ، ويحاولونَ اجتذابَ بعضِ كبارِ الصحابةَ، فمَا كانَ من «عبداللَّه بنِ مسعود» حينما ذهبوا يعرضونَ عليهِ هذا الأمرَ إلا أن قالَ:

– «أمَا إنكمْ إن قتلْتمُوهُ، لنْ تُصيبوا مثلهُ».

وكذلكَ قالَ عنهُ «أبوُ ذَر الغفاريّ»:

– «واللَّه لوْ أنَّ عثمانَ صلَبني علَى أطْولِ خشبةٍ، أو أمرٌ على أطولِ جبلٍ، لسمعتُ وأطعتُ وصبرتُ واحتسبتُ، ورأيتُ ذلكَ خيراً لي».

وها هو أبو ذر لا يتركُ لأحدٍ فرصةً كي يستغلَّ خلافاً للرأي وقعَ بينهُ وبينَ عثمانَ وقد أبعدَهُ عثمانُ عن المدينةِ المنورةِ إلى مكانٍ يدعى «الربْذَةَ».

حكمة «عثمان»:

كانَ عددُ هؤلاء البغاةِ يتزايدُ، والحقدُ يتزايدُ داخلَ قلوبهمْ يوماً بعدَ يومٍ .. وقد رفضَ عثمانُ الحلَّ الذي أشار به «المغيرةُ بن شعبة» عندما قالَ لهُ:

«نَقْتلُ البغاةَ» فقال عثمانُ في حزمٍ:

– «لا واللَّهِ. لا أكونَ أولَ مَنْ يَخْلُفُ الرسولَ في أمتهِ بسفكِ الدماءِ».

إنهُ يرفضُ أن يقتلَ البغاةَ، ويسفكَ الدماءَ، يرفضُ أن يتعرضَ للذينَ اجتمعوا لقتلهِ.

ويحاصرُ البغاةُ دارهُ، شاهرينَ سيوفَهُم استعداداً لقتلهِ وهو يرفُض قتالهمْ قائلاً كلمتهُ الخالدةَ:

– «ما أحبُّ أن ألقَى اللَّهَ وفي عنقِي قطرةُ دمٍ لا مرِئٍ مُسلمٍ».

لا يريدُ عثمانُ أنْ يكونَ سبباً في قتلِ واحدٍ منهمْ، أو إسالةِ قطرةِ دمٍ من مسلمٍ، حتَّى ولو كانَ ذلكَ الذي يدعِي الإسلامَ، خارجاً عن الدينِ، لا يريدُ إلا فعلَ الشرِّ، والقضاءَ على عثْمانَ!!

وتأتي الفرصةُ لعثمانَ حتَّى يخرجَ من دارهِ، وينجُو من القتَلَةِ فيرفضُ؛ لأنهُ يعلمُ أنهُ علَى موعدٍ في الجنةِ معَ الرسُولِ وأبي بكرٍ وعمرَ وهلْ ينسَى بشارةَ الرسولِ حينمَا أمرَ جبلَ أحدٍ ألا يهتزَّ لأنَّ عليهِ نبياً وصدِّيقاً وشهيدين، ولقد سبقهُ إلى الشهادةِ «عمرُ بن الخطابِ» أفَيتأَخَّرُ هوَ؟.

«عثمانُ» يتأكدُ من صحةِ موقفهِ:

كانَ عثمانُ يعرفُ أنهُ علَى الحقِّ ولكنهُ أرادَ أن يستوثقَ، فأرسلَ إلىَ رجلٍ من خيارِ الصحابةِ إلى «عبدِاللَّه بنِ عمر بن الخطابِ» فقال له:

– «إن هؤلاء يريدونَ خلْعِي، فإنْ أجبتُهمْ تركُونِي، وإن أبيْتُ قتلُونِي. فماذا ترى؟».

أجابَ ابنُ عمرَ:

– «أرأيتَ إنْ خلَعْتَ نَفسَكَ، تبقَى في الدنيَا مخلَّداً؟».

قالَ عثمانُ:

– «لا».

قال «ابنُ عمرَ»:

– «أرأيتَ إنْ لمْ تخلعْ نفسَكَ. هلْ يزيدونَ على قتلكَ شيْئاً؟ هلْ يملكونَ الجنةَ والنارَ»؟ قالَ عثمانُ:

– «لا».

قالَ «ابنُ عمرَ»:

– «إذنْ. لا تَسُنَّ هذه السُّنةَ في الإسلام، ولا تخلعْ قميصاً ألْبسَكَهُ اللَّهُ».

يستشيرُ عثمانُ «ابنَ عمرَ» هل يتركُ الخلافَةَ لهؤلاءِ الثوارِ كي لايقتلوهُ ويطلبُ منه رأيه، فيجيبهُ وهل سيبقَى في الدنيا مخلداً لا يموتُ إن هو تركَ لهم الخلافةَ، يجيبُ عثمانُ لا، فيعاودُ «ابنُ عمرَ» السؤالَ، هل يملكُ هؤلاءِ شيئاً من أمر الجنةِ والنارِ، فيجيبُ «عثمانُ» لا، فيعلنُ «ابنُ عمرَ» العبدُ التقيُّ عدمَ موافقتهِ على تركِ عثمانَ للخلافةِ. وتأكدَ عثمانُ بذلكَ من صحةِ رأيهِ.

استشهادُ «عثمانَ»:

وجاءَ اليومُ الأخيرُ في حياةِ صحابي امتلأتْ حياتهُ بالخيرِ، وهناك صفوفٌ عريضةٌ من الثوارِ الخارجينَ على طاعةِ اللَّهِ تحيطُ بدارِ الخليفة تمنعُ عنهُ الزوارَ والطعامَ والشرابَ، وفي الوقت نفسه توجدُ جماعةٌ من الصحابةِ أمامَ البابِ تحميه، وجاءَ الصباحُ، فكان عثمانُ صائماً، في الليلةِ السابقةِ ،قد صلَّى كمَا أرادَ اللَّهُ لهُ أن يصليَّ، وقرأَ من آياتِ القرآنِ الكثيرَ، ثمَّ نامَ فرأى الرسُولَ ﷺ يقول له:

– «أفطِر عندَنَا غداً يا عثمانُ».

إنهَا رؤيَا الحقِّ، ولا شكَّ أنّ هذه الكلماتِ أفضلُ عند عثمانَ من الدنيَا وما فيهَا، وفعلَ الخليفةُ فعلاً يدلُّ على عظمةٍ لا حدَّ لها إذ دَعَا عثمانُ جميعَ الذين في الدارِ، ورجَاهُمْ أن يتركُوا سلاحَهُم وينصَرِفُوا عنهُ مشْكُورينَ، إنهُ لا يريدُ أنْ تراقَ «قطرةُ دمٍ» حتى النهايةِ، وبينمَا هُو يقرأُ قولَه تعالَى:

– ﴿**الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ**﴾[1].

وعندما تَقَدَّمَ هؤلاءِ البغاةُ الأشرارُ ليرتكبوا جريمتهُم البشعةَ، لم يتخلَّ عن المصحفِ ولم يقاومْ كي يأخذَ أجرَ الصديقينَ كاملاً عندَ ربهِ.

١– خلفاء الرسول–خالد محمد خالد – دار الفكر. والآية: ٧٣ – آل عمران.

نَعَم إنهَا نِعمَ النهايةُ لحياةٍ حافلةٍ بالجهادِ والعبادةِ، وكانَ الاغتيالُ قد تمَّ في الفترةِ بينَ العصرِ والمغربِ. وتحققَتْ بشارةُ رسولِ اللَّهِ إذ أفطرَ عنده عثمانُ. وانتهتْ بذلكَ حياتهُ، بعد اثني عشرَ عاماً قضاهَا في الخلافةِ.

رحمَهُ اللَّهُ رحمةً واسعةً علَى ما قدمَ من جليلِ الأعمالِ لهذَا الدين وألحقنَا بِهِ علَى خيرٍ.

obeikandl.com